JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثالث والعشرون
٢٠٢٤م /١٤٤٦هـ
العدد الثالث والعشرون
(٨١) -(١٠٢)

ثنائية اللّذة والألم في شعر يوسف بن هارون الرّمادي

م.د. ناجي حسين مكطوف
كلية التربية الأساسية/ جامعة سومر
Aldelfi69@Gmail.com

المستخلص:

يهدف البحث إلى دراسة وتقصي ثنائية اللّذة والألم في شعر يوسف بن هارون الرّمادي، بما تمثله هذه الثنائية من تضاد عبّر على حال الشاعر، وما تمنحه للنص من كسر للرتابة والجمود، حتى تبعث في ذهن المتلقي روحا غير متوقعة، فهي قد جاءت انعكاسا لشخصية الشاعر التي مرت بمراحل متعددة، وتغيّر الحال فيها وتبدل؛ نتيجة للظروف القاهرة التي فُرضت عليه، فتلون معها شعره بهذه الثنائية، التي حاولنا عبرها إظهار ما تجسد فيها من قيم فنية ونفسية، استطاع الشاعر أن يبثّها في مقطوعاته وقصائده التي قالها في مختلف موضوعاته الشعرية، مستعملا هذه البنى اللغوية التي تعد ترجمة لنفسيته ومكنوناته الداخلية.

الكلمات المفتاحية: الثنائية، اللذة/ الألم، الشعر، الرمادي.

The duality of pleasure and pain in the poetry of Yusuf bin Harun Al-Ramadi

M.D.Naji Hussein Maktuf
College of Basic Education/Sumer University
Aldelfi69@Gmail.com

Abstract:

The research aims to study and explore the duality of pleasure and pain in the poetry of Yusuf ibn Harun al-Ramadi, how this duality represents an apparent contrast in the poet's condition. It also investigates how it breaks the monotony and rigidity in the text, aiming to evoke an unexpected spirit in the mind of the reader. This duality reflects the personality of the poet,

JOBS مجلة العلوم الأساسية Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثالث والعشرون
٢٠٢٤م/١٤٤٦هـ

who experienced multiple stages of change and transformation due to compelling circumstances imposed upon him. His poetry is colored by this duality, through which we attempt to highlight its artistic and psychological values. The poet managed to express these values in his various poetic compositions, utilizing linguistic structures that serve as a translation of his psyche and internal complexities.

Key words:duality, pleasure/pain, poetry, Al-Ramadi

توطئة:

الثنائيات الضديّة:

لم تكن الثنائيات الضدية بعيدة عن اهتمام الباحثين منذ القدم وعلى مر العصور، بوصفها ظاهرة فلسفية قبل كونها لغوية تأصلت في النفس البشرية وتدخلت في نظام الكون، وعلى هذا الأساس جاء تعريفها في الحقل الفلسفي بأنها "الثنائي من الأشياء ما كان ذا شقين، والثنائية هي القول بزوجية المبادئ المفسرة للكون، كثنائية الأضداد وتعاقبها أو ثنائية الواحد والمادة... والثنائية مرادفة للأثنينية: وهي كون الطبيعة ذات مبدأين، ويقابلها كون الطبيعة ذات مبدأ واحد، أو عدة مبادئ (الثنوية والأثنينية)"(صليبا، ١٩٨٢، ٣٧٩).

ففي الفلسفة اليونانية يرى (سقراط) أن "كل شيء له ضد يتولد من ضده، فالعدل ينشأ من الجور، واليقظة من النوم، والنوم من اليقظة، ولابد أن يتولد الموت من الحياة، والحياة من الموت، وإلا فقد تخالف الطبيعة قاعدتها المضطردة في جميع الأشياء، ويعزز ذلك بقوله: فهناك سبل جديدة تؤدي بنا إلى نتيجة بأن الحي يخرج من الميت، كما يخرج الميت من الحي سواء بسواء" (التكريتي، ١٩٧٩، ٢٣).

مجلة العلوم الاساسية
للعلوم التربوية والنفسية وطرائق التدريس للعلوم الاساسية

ولم تكن الفلسفة العربية بعيدة عن هذا المنظور بالنسبة للتضاد فقد تحدث فيلسوف العرب الأول الفارابي عن التضاد حينما تحدث عن ثنائية المادة والصورة، وكانت هذه البذور التي نتجت عنها فلسفة ابن سينا وابن رشد والغزالي في حديثهم عن هذا المفهوم، فالفارابي يرى "أن كل شيء في الوجود يحتوي على ضدّه، ويكون بذلك قد اقترب كثيرا من المفهوم الهيغيلي للجدل. فالحياة تحمل بذور الموت، والموت يحمل بذور الحياة" (الديوب، ٢٠١٧، ٨٦).

إن مصطلح الثنائيات الضدية وإن لم يكن أدبي النشأة فهو لم يبق بعيدا عن هذا الميدان أي ميدان الأدب والنقد، فقد أدخل إليه، وإن أول من جاء به إلى مجال النقد هم البنيويون، حينما حاولوا بوساطته مقاربة النصوص الأدبية والكشف عن خباياها، ويعد (ليفي شتراوس) من أوائل من أطلق

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثالث والعشرون
٢٠٢٤م/١٤٤٦هـ

هذا المفهوم عندما أراد دراسة الأساطير، التي تتمثل بهذه الثنائيات المتعارضة والمتكاملة في نفس الوقت، ولم يقتصر هذا التحليل البنيوي للثنائيات الضديّة على ما يرد فيها من كلمات ومفاهيم بل تجاوز ذلك إلى النص والرموز التي ترد فيه (ينظر: الديوب، ٢٠٠٩، ٥).

أما النقد العربي قديما وحديثا فقد عرف كذلك الثنائيات الضدية، فالجاحظ يعد من أوائل الذين التفتوا إلى هذه الثنائية، إذ يرى أن مكونات الوجود ترتكز على ثلاثة أمور (متفق، مختلف، متضاد) (ينظر: الجاحظ، ١٤٢٤، ٢٤). وتحدث نقادنا العرب القدامى كذلك عنها وإن اختلفت مسمياتها عندهم. كما عرفها نقادنا المحدثين إلا أنهم اعتمدوا ما جاء به الفكر الغربي.

تعد الثنائيات الضدية عنصرا أساسيا ومهما في الوصول إلى شعرية النص الأدبي؛ فهذه العلاقات البنيوية المعقدة تتشابك شكلا ومضمونا، كما يمكن بوساطتها فهم وتحليل النصوص الأدبية، وأيضا يمكن عبرها إظهار جماليات هذه النصوص وإبداع مؤلفيها، فهي من العمليات المتجذرة في الإبداع الشعري، وإن هذه التقابلات التي يقوم الشاعر بعقدها في نصوصه الشعرية والتي تحمل في جوهرها عنصر التضاد يمكن لها خلق جمع من التساؤلات وتؤدي أخيرا إلى منح القارئ أوسع مساحة للتأمل والتفكير بما يدور حوله من ظواهر مختلفة حياتية وإنسانية قد يكون لها أثر في إحداث نوع من المفارقة، إذ إن دراسة الشعر عبر هذه الثنائيات الضدّية يعد من الوسائل الفنية التي يمكن لها أن تسهم في إيجاد نوع من الإيقاع الدلالي في القصيدة، وتفتح أفق الخيال للمتلقي وهذا بدوره يؤدي إلى أن تكون العبارة الشعرية قابلة للقراءات المتعددة.

فكما أضفت الثنائيات الضدية الحيوية والتنوع على الشعر العربي في المشرق فقد كان للشعر الأندلسي نصيبه الوافر من هذا التأثر، على الرغم من اختلاف البيئة الأندلسية عن البيئة المشرقية إلا أن المشاعر الإنسانية تبقى واحدة، فالصراعات النفسية والاجتماعية والسياسية واضطراب الأوضاع كل ذلك كان جوا خصبا لخلق التناقض في ذات الشاعر، لينتج عن ذلك هذا التضاد بين المشاعر التي تموج في نفسه، لأن التضاد "مخالفة والمخالفة تغدو فاعلية أساسية يتلقاها القارئ عبر كسر السياق والخروج عليه" (مسعود، د.ت، ١٦١)، ويبقى إبداع الشاعر هو المتحكم في إظهار تجاربه الشعورية وهو يقع تحت وطأة واقعه الذي قد يفرض عليه القول ولكن بطريقة فنية مؤثرة. فشاعرنا مدار البحث قد فرضت عليه الظروف أن يعيش الحالين: حال من السرور وحال من الألم، حاله حال كثير من الشعراء، فعبّر عن تلك الحالين بأسلوب فني تجسّدت فيه شاعريته وقدرته على التحكم في هذا التضاد الذي لوّن جزءا من حياته وشعره.

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثالث والعشرون
٢٠٢٤م/ ١٤٤٦هـ

يوسف بن هارون:

على الرغم من أن القرن الربع الهجري يعد من القرون المضيئة في تاريخ الأندلس؛ إذ بلغت فيه الحضارة العربية الأندلسية ذروتها، فهو من العصور التي وصلت فيها الحضارة الإسلامية إلى أوج نضجها وتحضرها سواء أكان في المشرق العربي أم في المغرب العربي على حد سواء، فقد استطاعت المعارف الإسلامية استفراغ حضارات العالم المتمدن الذي سبقها ووضعها في قالب إسلامي مميز، وكان للأندلس نصيب من هذه الحضارة التي انمازت بطابعها المتفرد الذي تجلى بأبهى ضصوره في بناء حضارة عربية إسلامية (ينظر: العبادي، ١٩٥٨، ١٢٣)، إلا أن الأندلس وعلى الرغم مما وصلت إليه في هذه المدة من الزمن لم تسر الأمور فيها على وتيرة واحدة من الاستقرار، فالحياة السياسية كان لها أثر كبير على حياة المجتمع الأندلسي، فالخلافة لم تبلغ أوجها مع الخليفة الناصر قبل أن تمر في فترات من الاضطراب السياسي وخاصة في مركز الحكم في عصر سيادة قرطبة، إذ "كانت الأندلس جمرة تحتدم، ونارا تضطرم، وقد عظم الشقاق والنفاق، وارتجت الآفاق" (ابن الخطيب، ١٩٥٦، ٢٩).

وفي وسط هذه الظروف المتذبذبة بين الاستقرار وعدمه ولد الشاعر أبو عمر يوسف بن هارون الكندي المعروف بالرّمادي في ولاية عبد الرحمن الناصر، في القرن الرابع الهجري، وكتب له أن يعيش ردحا طويلا من الزمن فقد قارب المائة عام، إلا أن سنة ولادته لم تحدد وكان فيها اختلاف بين الكتاب الذين أرخوا له، ويرجّح أن يكون العقد الأول من هذا القرن تاريخا لولادته (ينظر: جرّار، ١٩٨٠، ٧)، وحتى أن نسبه الرّمادي لم تذكر المصادر دقّته، فقد نسبته بعضها إلى رمادة وهو موضع في المغرب (ينظر: الحميدي، ١٩٨٣، ٣٩٦)، ومنها ما يقول إنها الصورة العربية لما كان يكنى بالإسبانية (أبو جنيش) ، والتي تعني الرماد (ينظر: بالنثيا، ١٩٧٩، ٦٨). إلا أن هناك رأي يقول ـ وأتفق معه أيضا ـ "إنه لقب بالرّمادي إما لأنه كان فقيرا مقلا يعيش عيش سائر الشعب والعامة، فكان أصحابه يتندرون فيما بينهم بتلقيبه بهذا اللقب، أو لأن خرجات موشحاته ــ وهو كان من الوشاحين ــ كانت شعبية رمادية، أو لأنها كانت تسير على ألسنة العامة" (جرّار، ١٩٨٠، ٢٠).

لقد ضاعت كثير من أخباره كما ضاع كثير من شعره الذي تناثر بين المؤلفات الأندلسية المختلفة والتي حفظت المقطوعات منه وبعض القصائد الكاملة، ولا يعرف السبب وراء عدم ذكر أخباره وأشعاره كاملة على الرغم من أنه من شعراء العهد الأموي الذي ظهروا وأجادوا في قولهم وكتبوا في مختلف الموضوعات الشعرية، ففضلا عن عدم تحديد سنة ولادته فقد أهملت المصادر أيضا سبب

JOBS مجلة العلوم الأساسية Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثالث والعشرون
٢٠٢٤م/١٤٤٦هـ

قدومه إلى قرطبة وكيف وصل إلى مدينة مركز الحكم في ذلك العصر، وهل انتقل إليها بمفرده أم مع عائلته؟

كل هذه التساؤلات أغفلتها المصادر التي ذكرت الشاعر بين طياتها ولا نعلم لماذا؟ على الرغم من أن اسمه كان يرد في أغلب هذه المصادر الأندلسية الكبيرة، وهذا يدل على شهرته بين الشعراء في الأندلس، وقربه من أهل الحكم والثقافة، وإلا لما كثر ذكره وتناولته الأقلام.

يمكننا القول إن الحدث الأهم في حياة الشاعر يوسف بن هارون في بداية مسيرته الشعرية هو لقاؤه بأبي علي القالي الذي دخل الأندلس سنة (٣٣٠ هـ)، بكل ما كان يحمله القالي من سمعة دوّت شهرتها في المشرق قبل أن تدوّي في الأندلس، ومدحه له بقصيدة طويلة ذاع صيتها وبلغت شهرتها آفاقا بعيدة، وقد كانت في عهد شبابه، ومما يدل على قدرته على النظم وقول الشعر، كما أنها أثبتت إجادته في استعمال مخزونه اللغوي خير استعمال (ينظر: جرّار، ١٩٨٠، ٤٦)، فهو يعلم جيدا أنه أمام عالم من علماء اللغة المشهورين، فكانت قصيدته على قدر كبير من الإتقان والصنع، إذ نسّق أبياتها تنسيقا واعيا أظهر فيها مقدرة ووعيا وصناعة، وكانت هذه القصيدة برهانا على شهرته وقربه من الخلفاء والأمراء وأهل العلم في بلاده.

تفاوتت حياة شاعرنا بين الرخاء والدعة وبين الفقر والفاقة التي كانت تمر به في فترات من فترات حياته ولازمته أخيرا حتى توفي سنة (٤٠٣ هـ) فقيرا معوزا وقد بلغ به العمر عتيا حتى أنه أدرك الفتنة التي أصابت الأندلس (ينظر: ابن بشكوال، ١٩٩٤،ج١/٦٣٨)، (ينظر: عباس، ١٩٨٥، ٢١٢- ٢١٣).

اشتهر أبو عمر الرّمادي بالهجاء الذي أبدع فيه وكان لا يتوانى من هجاء أي أحد حتى أصحاب السلطة، وهذا ما سبب له الكثير من المشكلات حتى أنه سجن كثيرا لمواقفه المناهضة للسلطة في ذلك العصر، فهجا الخليفة الحكم المستنصر وسجن طويلا على أثر ذلك الهجاء، إذ "شاعت عنه أشعار في دولة الخليفة وأهلها سدد إليهم صائبات نبلها، وسقاهم كؤوس نهلها وأوغرت عليه الصدور ونفرت عليه المنايا ولكن لم يساعدها المقدور، فسجنه الخليفة دهرا، وأسلكه من النكبات وعرا" (ابن خاقان، ١٩٨٣، ٣١٧)، حتى أنه توسل طويلا بولده هشام بن الحكم ليشفع له عن أبيه، فأخرج من السجن، كما أنه كان شاعرا مدّاحا متكسّبا، فقد عاصر الناصر ومدحه، ومدح بعده ولده المستنصر، وحينما تولى الأمر المنصور بن أبي عامر رافقه ومدحه أيضا (ينظر: الأندلسي، ١٩٧٨، ٣٩٢)، فضلا عن مدحه كثيرا من العلماء والأمراء وأصحاب الجاه. ولم تكن أغراض شعره

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثالث والعشرون
٢٠٢٤م/١٤٤٦هـ

محصورة بين الهجاء الذي اشتهر به والمدح بل كتب في وصف الخمرة التي دافع عن منعها كثيرا أمام المستنصر وقد أدى موقفه هذا إلى سجنه أيضا، كما أنه كتب شعرا في الغزل ولاسيما في محبوبته (خلوة) التي لم يهنأ بوصلها، فظلت ذكراها عالقة في ذاكرته وشعره، وتغزل كذلك في الغلمان، إلا أنه لم يصدر منه شعر فاحش كما صدر عن كثير من شعراء زامنوه شرقا أو غربا.

انماز شعر ابن هارون مع تعدد أغراضه وانتمائه إلى الطبقة البرجوازية بحكم ثقافته بالسلاسة والسهولة، سائرا على البديهة، فقد "كان شاعرا حاضرا عند العامة والخاصة، وكان شعره حلو مطبوع، وعلى الأذان مسموع" (الشنتريني، ١٩٧٩، ٣٤٧)، حتى قال فيه الحميدي: إن "شيوخ الأدب في وقته يقولون فتح الشعر بكندة وختم بكندة يعنون امرؤ القيس والمتنبي ويوسف بن هارون" (الحميدي، ١٩٨٣، ٣٧١)، كما أنه كان سريع القول، فنجد أن جل ما حفظ من شعره كان مقطوعات شعرية قصيرة، وأن أغلب شعره قد ضاع واندثر ولا سيما ما قاله من شعر في الهجاء، كما أكد ذلك عبد الله عنان بقوله: "كان من أشهر شعراء الأندلس في وقته، وأشتهر بالأخص بشعره الهجائي" (عنان، ١٩٩٧، ٧٠٢ ـ ٧٠٣) .

ما دامت حياة شاعرنا قد تذبذبت بين الشدة تارة والرخاء تارة أخرى، أو بين سروره وهو يتجول بين قصور الخلفاء والأمراء وأصحاب الجاه، ويعيش الحب والغزل بالنساء والغلمان في تلك البيئة الجميلة التي كانت تحتضنها الأندلس وبين سنوات سجنه وهو يبحث عن الحرية التي سلبت منه وأصبح أسير الغرف المظلمة، بين هذه وتلك تنوعت قصائد يوسف بن هارون ومقطوعاته الشعرية وظهرت جلية فيها ثنائية اللذة أو لنقل الأمل بحياة هانئة جميلة والألم الذي رافقه كثيرا وبات يؤرقه حتى سنوات عمره الطوال.

ولتفرّق شعر الرّمادي في مظان المصادر الأندلسية المختلفة ولم يجمع بديوان واحد، آثرنا أخذ النماذج الشعرية من كل ما جمع من شعر له في كتاب (شعر الرّمادي) للباحث ماهر زهير جرّار الذي تكلف مشكورا بجمع شعره الذي تفرق في هذه المصادر، إذ ذيّل كتابه بذكرها جميعا.

ثنائية اللّذة والألم في شعره:

عندما نتكلم عن ثنائية اللّذة والألم فإننا نتكلم عن كل ما يمكن أن يصل بالمشاعر الإنسانية إلى مستوى من الرضا والقبول والارتياح والأمان لتصل إلى النشوة، أو كل ما يمكن أن يصل بهذه المشاعر إلى مستوى من القلق والحزن والخوف واليأس ليصل بها إلى التوجع والأسى، فدائرة حياة الإنسان لا تخرج عن هذا النطاق والتأثر فيه والتعاطي معه، فالفكر الإنساني لا يمكن أن يتحرك

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثالث والعشرون
٢٠٢٤م/١٤٤٦هـ

خارج هذا النطاق. وللبحث عن هذه الثنائيات الضدية واستكشاف بناها في شعر يوسف بن هارون فقد جاء دراستنا لهذه الثنائية على وفق المنهج الوصفي للبحث عن هذه الظاهرة (اللّذة والألم) في شعر، كما أننا استعنّا بالمنهج التحليلي لتحليل البنى التي وردت فيها هذه الظاهرة.

استعان أبو عمر الرّمادي في صياغته لهذه الثنائية الضدية ببعض التقابلات اللغوية وأدواتها التي يمكن أن تساعده في تحركه باتجاهات متعددة، فتثير الدهشة والمنافرة، وتدعو للتأمل أو التفكر للعقل والقلب، وإن أول ما يطالعنا ونحن بصدد بيان مدى تجسيد ثنائية اللّذة الألم في شعره ذلك الوضوح في شعر الغزل الذي عرف به، فبانت لنا آثار ذلك الشوق الجارف الذي كان مسيطرا عليه وعلى مشاعره تجاه الحبيب الذي كان يتمثل تارة بحبيبته (خلوة)، أو غيرها من النساء، أو شعر التغزل بالغلمان الذي كان له نصيب من شعره، وإن لم يكن يمثل ظاهرة عامة لدى الشاعر، فيقول في غزله (الرمادي، ١٩٦٨، ٦٠):

"بحـــت بحبـــي ولـــو غرامـــي ... يكـــــون بصـــــخرة لباحـــــا
ضـــيّعتُ الرّشـــد مـــن محـــبّ ... لـــيس يـــرى فـــي الهـــوى جُناحـــا
لـــم يســـتطع حمـــل مـــا يلاقـــي ... فشـــــقّ أثوابـــــه وصـــــاحا
محيّـــر المقلتـــين قـــل لـــي ... هـــل شـــربتْ مقلتـــاك راحـــا
نفســـي فـــدى لمّـــة وخـــدّ ... قـــد جمعـــا اللّيـــل والصّـــباحا
وعقـــرب سُـــلّطت علينـــا ... تمـــــلأ أكبادنـــــا جِراحـــــا
قـــد طـــار مـــن شـــوقه فـــؤادي ... فصـــار شـــوقي لـــه جناحـــا"

يتمثل ألم الشاعر هنا بفراق من أحب، ويقارن هذا الكبت والصبر الكبير الذي يقاسيه بعدم قدرة الصخر على تحمل ما يمر به من معاناة وشوق، فثنائية الأنا التي يتحدث بها الشاعر وتتمثل بكل ما يحمله من ألم تقابلها ثنائية الآخر/المحبوب الذي لم يرع هذا الحب وهذا الود، إذ تمثل المرأة الباعث الذي يحقق هذه النشوة بالنسبة له، فيلجأ الشاعر هنا إلى مخاطبتها بصيغة الاستفهام (هل شربت مقلتاك راحا؟)، ومع كل هذه القسوة والمعاناة إلا أن المحب يبقى وفيا لمحبوبه ليبعث لنفسه هذا الأمل في أن تكون نفسه فدى له وهو يرى الجمال الذي جمع الضدين الليل والصباح وهما سر

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثالث والعشرون
٢٠٢٤م/ ١٤٤٦هـ

جماله الذي يملأ روحه أملا بهذا القرب، إنها اللذة التي تبعث في روحه السرور وهو يلاقي محبوبه ولو طيفا عابرا.

ويقول حين كان يوصى بالصبر الذي هو فوق قدرته على الهجران (الرمادي، ١٩٦٨، ٦٩):

" قـالوا اصـطبر وهـو شـيء لسـت أعرفُـهُ ... مـن لـيس يعـرف صـبرا كيـف يصـطبر

أوصـى الخلـيّ بـأن يَغضـي المُلاحِـظ عـن ... غُـرِّ الوجـوه ففـي إهمالهـا غـرر

وفـاتن الحسـنِ قتّـال الهـوى نظـرت ... عينـي إليـه فكـان المـوت والنّظـر

ثـم انتصـرتَ بعينـي وهـي قـاتلتي ... مـاذا تريـد بقتلـي حـين تنتصـر

يـا شُـقّة الـنّفس واصِـلها بشُـقّتها ... فإنمـا أنفـسُ الأعـداء تهتجِـر

ظلمتنـي ثـم أنـي جئـت مُعتـذرا ... يكفيـك أنـي مظلـوم ومُعتـذِر"

تتجسد في هذه الأبيات آلاما كثيرة وليس ألما واحد من محبوبه، وهو الذي ينتظر منه العدل والحب والمودة، فهو بقدر ما يعاني الألم من المحبوب يلاقيه أيضا من عينه التي باتت ضدّه وساعدت عليه الشريك، فهي التي قتلته أولا قبل أن يقتله المحبوب، وهو يسأله ما يفيدك قتلي وأنا المقتول بعيني التي فضحتني بانسياب دموعها الذي لم ينقطع لفراقك، وكان أكثر إيلامه أنه وعلى الرغم من كونه مظلوما فهو المعتذر الذي حتى اعتذاره المقلوب لم يفده في إعادة الوصال بعد القطيعة، فمتى ما تحقق الوصل وهو مطلب الشاعر هنا انتفى الهجران، فالوصل للشاعر يعد الغيث الذي يروي روحه وتزهر نفسه المحبة وهي اللذة التي يبغيها المحب، وإن كان الصدود فهو الهجر والجفاء والألم الذي يبعث في النفس المشقة والنفور.

كرر الشاعر ألفاظ القتل والموت أكثر من مرة في النص وهذه الألفاظ فيها من الدلالة على أن الشاعر قد وصل إلى طريق الجزع من نفسه وعينه التي وقفت ضده، ومن محبوبه الذي زاده قتلا فوق قتله المعنوي هذا، فالقتل هو نهاية للحياة وهو بهذا يعمق ألمه ولكنه لا يريد الركون إلى الاستسلام بل يأتي معتذرا على الرغم من أنه صاحب الحق في اعتذار المحب منه، طالبا الرضا ونهاية الهجر واللذة التي تأتي بعد الوصال.

وكأن الشاعر قد مل من كثرة الترجي في الوصال، فبات يوجه شكره إلى خيال الحبيب بدلا من الحبيب الذي زاد بعدا وهجرا فيقول (الرمادي، ١٩٦٨، ٧٥):

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثالث والعشرون
٢٠٢٤م/١٤٤٦هـ

" لا شُكرَ عندي للحبيب الهاجر بل جُلَّ شكري للخيال الزائر
فكأنه يخشى العيون نهاره فيزورني تحت الظلام الساتر
نومي يريهِ لناظري فكأنه قبل المنام قد اختفى في ناظري"

المتأمل للأبيات السابقة يرى أن الشاعر يبحث عن اللذة من لقاء حبيبه ولكنه من فرط ما مرّ به من التعب والانتظار يقدّم الشكر لخيال الحبيب الذي يزوره ليلا بدلا من تقديم الشكر للحبيب نفسه، فهو يراه في نومه وكأنه قد اختفى قريبا جدا في ناظره ليأتيه في المنام ويُشبع عنده اللذة الحسيّة "فلحظات السعادة والمتعة لا يمكن تعويضها إلا بعد ارتياد عالم المرأة المشحون بالأسى وعمق الألم" (عطية، ٢٠٠٥، ٧١).

فعمق الألم الذي يكابده الشاعر من الهجر جعله يتوسل بخيال الحبيب ليزوره ويراه عبره، وقد تجسدت ثناية اللذة والألم في هذه الأبيات عبر المترادفات التي ذكرها الشاعر الهاجر/ الزائر، النهار حيث التجلي/ ويقابله الظلام حيث الاختفاء وكذلك يريه لناظري ويختفي في ناظري كلها ألفاظ دالة على حال الشاعر المتناوبة بين الصدّ والقبول، فالطيف أو الخيال الذي لجأ إليه الشاعر كان باعثا على اللذة التي يمكن أن تشبع رغبة الشاعر ونزعاته "فهو معبّر عن إرادة الحالم ومزيل لفارق المطلوب عن الممكن" (إبراهيم، ١٩٨٩، ٥٨).

وللشاعر لوعة وألم من فقد أحبته، فبعد شعره في الغزل الذي تتجلى فيه ثنائية اللذة والألم، يكتب أبياتا لرثاء صغير لم تذكر المصادر صلة قربه من الشاعر إلا أننا نستنتج أن المرثي هو ابن له؛ وذلك لمقدار اللوعة والألم الذي ظهرت عليه أبيات الرثاء، فيقول (الرمادي، ١٩٦٨، ٧٦):

"تأملت من بين الدّموع كأنما تأملت من بين السحاب المواطر
محلّ أبي العباس حيث عهدتُه لعل أبا العباس يبدو لناظري
فلمّا انثنت عيني ولم ترَ شخصه رجعتُ إلى تمثاله في خواطري
كأنا تمتعنا لقلة عمره بلمحة برق أو بلمحة طائر
فإن يتّخذ بين المقابر موطِنا فأوطانُنا من بعده كالمقابر
وقالوا صغيرٌ فاصطبر لمصابه فقلت: أشدّ الفقدِ فقدُ الأصاغر"

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثالث والعشرون
٢٠٢٤م/١٤٤٦هـ

بما أن الإنسان لا يدوم على حال واحدة فلا سرور دائم ولا بكاء دائم، ومرور هذه الأحوال وانقضاؤها يبقى بحسب الظروف التي يمر بها الإنسان، والشاعر واحد من هذا المجتمع فقد تمر به ما تمر بسائر الناس ولكن يبقى الفارق في طريقة التعبير عن مقدار هذا السرور وهذا الحزن، فأبيات شاعرنا تغص بالفجيعة وما يدل على مقدار هذه الفجيعة هو مقدار الدموع المنهمرة منه، فقد قارنها بالسحاب المثقل بالمطر وهذا تعبير عن مقدار الألم والحزن الذي سيطر على مشاعره، "فالبكاء حالة إنسانية، مثقلة بشحنات من القلق والتوتر والإحباط، كما أنه يعكس الواقع النفسي الحزين لرسم ملامح لغة جديدة في التعبير الإنساني" (المظفري، ٢٠٠٦، ٧٤).

فالشاعر هنا لم يعجز أمام الألم ولم تشل قدراته على دفعه، ليصبح معتادا عليه، فيمتلكه اليأس والسكون، ويكون متأقلما معه ليتحول هذا التأقلم والسكون إلى واقع وحالة طبيعية، فيبدأ بالاستسلام والخضوع، وهو ما يسمى بالموت البطيء، كل هذا لم يحدث معه، بل أخذ يبحث وهو وسط هذا الحزن الكئيب عن فسحة من الأمل عبر رؤية المفقود بالتخيّل، فهو يريد أن يتمثله أمامه مادام لايستطيع أن يراه حقيقة كما كان يراه سابقا، وقد قصرت مدة مكثه في حياته وغاب عنه بلمحة كما يقول، ولشدة ولهول الفقد الذي أبعده عن هذا العزيز فهو لا يتصور مقامه في بيت إلا أنه كالمقابر فلا أنيس فيه ولا ضحك يتردد صداه في أرجاء تلك الدار، وحينما يُوصى بالصبر والجلد يفقد كل عزائمه فيقول إن أشدّ ما يفقده الإنسان هو فقد صغيره، أنها شكوى وألم شديد فـ "الألم هو أعمق مراحل المواجهة مع الواقع، وإن الشاعر المتألم يكون أصدق تعبيرا من غيره ليس لأن الألم أكبر من الحزن وأعمق غورا في النفس فحسب، وإنما لأنه يدفع إلى التفكير من الخلاص، وإلى وضع حد للمعاناة" (المقالح، ١٩٨١، ٥٦)، وهذا ما كان ابن هارون يحاول الوصول إليه، فهو في وسط هذه الكآبة كلها يبحث عن لذة في رؤياه حين يتمثله حاضرا أمامه. إن هذه التجربة الشعورية الصادقة التي تتمثل بموقفه هذا فقد أراد الشاعر عبرها بلورة فلسفته حول الدهر وتقلباته، وقد اتضح بها امتزاج اللّذة بالألم بشكل واضح وجلي.

فوسط هذه الثنائية الضدية بين الواقع الذي يعيشه الشاعر ويمثل حزنه وألمه وبين البحث عن اللذة بين هذا الركام من الحسرة والحزن تتجلى قدرة الشاعر على صوغ لغة قادرة على التعبير عن مكامن النفس الإنسانية في محاولتها التأقلم مع هذا الواقع "فليس ثمة مخلوق لم يحلم باستئصال كل ما في الحياة من ألم، حتى تسود العالم اللذة وحدها، ولكن هذا الحلم الجميل، هو في الحقيقة ضرب من

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثالث والعشرون
٢٠٢٤م/١٤٤٦هـ

الاستحالة؛ لأن من ينتزع من نفسه القدرة على التألم إنما يحرم ذاته في الوقت نفسه من القدرة على التلذذ" (إبراهيم، د.ت، ٩٨).

وكما طال الهجر على الشاعر فقد طال ليله وطال انتظاره فيه، فيصف ذلك الليل بقوله (الرمادي، ١٩٦٨، ٥٩):

" فطـــال علـــيّ الليـــلُ حتـــى كأنـــه ... قـــد امتثـــل الهجـــرَ الـــذي لـــيس يُقلَـــع

وطـــال انتظـــاري للصـــباح كـــأنني ... أراقـــب منـــه غائبـــا لـــيس يرجِـــع

فيـــا شـــعْرَ مـــن أهـــواه هـــل لـــك آخـــر ... ويـــا وجـــه مـــن أهـــواه هـــل لـــك مَطلَـــع"

يمثل الليل مأساة أخرى للشاعر، فحين يتوقف الزمن ليلا تحل عليه كل الهموم والأحزان التي يرجو انقضاءها بخلاصه من هذا الأسى الطويل، وإن إحساسه بطوله لم يكن ليأتي من فراغ، بل على قدر تلك الهموم التي تثقل صدره وتضيّق عليه، فأصبح إيقاع الزمن بطيئا على نفسه التي ظلت تنشد مجيء الصباح، فكان ألمه هو من يسعى به للخلاص من هذا الليل الطويل، فقارن بينه وبين هجر الحبيب الطويل أيضا، وبما أن اللّذة هي "نوع من التحرر أو العمل على التخلص من الألم" (مظهر، ١٩٣٦، ١٠٨)، فقد كان الشاعر يبحث عن لذة جميلة تطفئ من حرارة وقسوة ليله وهي تمثله لشعر الحبيب الذي شبهه بالليل الطويل لطوله ولسواده وظلمته، وكذلك نور وجهه الذي شبهه بالشمس التي تطلع صباحا لتنير له ظلمة وعتمة ليله البهيم المحمل بالشكوى والمرارة.

وعلى الرغم من أن الزمن هو الزمن ليلا كان أو نهارا إلا أن إحساس الشاعر هو من تغيّر تجاهه، فشعر بتوقفه، وهذا دلالة على طول مشاعر الألم، فالليل لا يتوقف فهو في حراك دائم ومستمر، إلا أن العامل النفسي له الأثر الكبير في تغيير الحس الزمني، وكل ذلك جاء من كمية القلق التي تكمن في نفسه، فـ "إذا ازداد ذلك القلق وبلغ أوجّه، شعرنا بأن الزمان وقف نهائيا؛ لأن الآن لا تجري فيه حركه، ومن هنا ارتبط القلق بالسرمدية؛ وذلك عن طريق الآن" (عبد العزيز، ١٩٧٢، ٨٣).

لم يكن حكم الشاعر على الزمن (ليلا أو نهارا) واحد، بل كان متغيرا بحسب الظروف النفسية التي يتركها ذلك الزمن عليه، فإن كان قد حمّله ما مرّ به من ألم وشكوى لطوله في المقطوعة السابقة فهو هنا يلوم الزمن (يوم النوى) لأنه كان سريعا في وداع حبيبته، إذ يقول (الرمادي، ١٩٦٨، ٨٣):

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثالث والعشرون
٢٠٢٤م/١٤٤٦هـ

"تولّـــت بهـــم يـــوم النـــوى مَطـــيُّهم بأعجـــلَ مـــن خَفـــقِ الفـــؤاد وأســـرعِ
كـــأن الحَشـــا والقلـــبُ عنـــد تـــذكّري لهـــم ورقـــاتٌ فـــي قضـــيبٍ مُزعـــزعِ"

فشبهه بخفقات القلب لسرعتها، مما زاد من هيجانه وذبوله فمثّل قلبه والحشا بالورق الذي يرتجف وهو في قضيب غير مسنود، وهذا من شدة الحزن واللوعة لفراق من يحب. فمنظر الظعائن حين الرحيل يمثل لوحة فنية يمتزج فيها الألم باللذة، ألم الحاضر وما سيصيب الشاعر بعده، ولذة الزمن الماضي بكل ما يحمله من ذكريات جميلة.

وتشبّها بالشاعر المشرقي في وقوفه على الأطلال؛ ليبث ألمه وشكواه وفقده فقد وقف شاعرنا على ديار الأحبة قائلا (الرمادي، ١٩٦٨، ٨٣):

"وقفـــت علـــى الـــدار الخـــلاء كـــأنني وقفـــت علـــى قلـــبٍ مـــن الصّـــبرِ بلقَـــعِ
رميـــت جمـــار الـــدّمع فـــي موقـــف النّـــوى وقـــد طفـــتُ أســـباعا برســـمٍ وأربـــعِ"

إن وقوف الشاعر الأندلسي هنا قد يكون مختلفا بعض الشيء عن وقوف الشاعر المشرقي؛ لكونه يقف على طلل منظور وهي الدار التي خلت من ساكنيها، مختلفا عن الشاعر المشرقي في وقوفه على آثار تلك الديار التي تبقى شاخصة فقط في ذاكرته بحكم البيئة الصحراوية، فهو لا يراها بل يستدل عليها عبر ما تبقى من أشياء دار الحبيب، فشاعرنا يشبه وقوفه وهو يشعر بالحسرة لبعد الحبيب وقرب الديار بالقلب الذي فرغ من الصبر فقد أضناه الفراق والشوق، فتتجسد هنا معاني الألم الذي رافق هذا الوقوف، وقد كان ذلك بغياب الحبيب وحضور ذكراه التي لم تفارقه، فلم يجد إلا الطواف في هذه الدار كحاج لبيت الله يؤدي فريضة الحج، وهو مقدار اللذة والفرح التي تسامر روحه وهو يقوم بهذا الطواف والتذكر. فالوقوف على الأطلال بمثابة سرور يدخله على نفسه المليئة بالأسى والألم على ما فاته من ذكريات، فقد كانت "اللّذة الوحيدة التي يجيدها هؤلاء الشعراء ويستحبونها هي لذة الألم والعذاب في حبهم، ولذة الشوق والحنين واللهفة إلى أحبابهم، فقد كان ألمهم في الحب هو غايتهم في اللذة، وكان وصف هذا الألم هو غايتهم في الغزل وشعر الوقوف على الأطلال" (حسن، ١٩٦٨، ٨٢)، وقد أبدع الشاعر هنا كونه مدركا لمكامن اللّذة والألم فقام بإسقاط خياله ليخلق أشكالا جديدة منها على وفق انطباعه ورغباته.

جُبِل الإنسان على البحث عمّا يمتعه، ويتمنى دوام هذا التمتع؛ لما له من أهمية في استقرار نفسيته وحياته، إلا أن الشاعر يوسف بن هارون في هذه الأبيات كان على عكس هذه القاعدة التي يبحث

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثالث والعشرون
٢٠٢٤م/١٤٤٦هـ

فيها الإنسان عن الملذات ويمقت فقدانها حتى لا يصيبه الألم والحسرة، فبات لا يَفرُق معه إن بقيت هذه الملذات أو ذهبت فهو قد شبع وقضى حاجته منها، فيُحدّث الورد الذي كان يرمز فيه للحبيبة فهي حرة إن تولت عنه، فاستعمل ثنائية الإقبال/ والرحيل فهما سواء عنده ليدل بهما عن استغنائه عن هذه الملذات التي يسعى لها غيره، فيقول (الرمادي، ١٩٦٨، ١٠٤):

"على الورد مني إن تولّى تحيةٌ ... وإن مضى إقبالُهُ أو رحيلُه

لقد كنت أُسقى فوقه الراح فوقنا ... من اللهو ظلٌّ لا يزول ظليلُهُ

وأوتارُ مخضوب البنان كأنها ... حَمامٌ وصبري حين طلّ هديلُهُ"

إن استعماله لهذه الثنائية الدالة على الإفراط في اللذة والألم الذي اختاره هو بنفسه لها معنى واحد كما قلنا وهي وصوله إلى الاكتفاء منه، ويعلل هذا الاكتفاء بما عاشه من أيام كانت حافلة بالملذات واللهو الطويل، واستدل على ذلك بألفاظ تدل على معاني الملذات وهي (السُقيا، الراح، اللهو، الظل الظليل، الأوتار، البنان المخضوب، هديل الحمام) وكلها ألفاظ دالة على قدر كبير من اللذة والراحة النفسية التي كان يعيشها.

كما يمكن القول إن الشاعر هنا أراد التلاعب بالألم؛ لأنه امتلك القدرة للسيطرة عليه، فأخذ بتأجيج لذته ليجعل مذاقها خاصا عبر مداعبتها بالألم، ليحصل أخيرا على لذة متوهجة بعد فقدانه المتعة من اعتيادها، فمحاولة فقدان اللذة ليس ما يرجوه الشاعر، بل جل ما يبغي هو أن ينالها ولكن بإثارته للألم، وإلا فليس من المعقول أن يسعى هو للعيش بعيدا عن كل هذه اللذات التي كانت تحيط به.

ولما كان من عادة الحياة أن لا تسير على وتيرة واحدة، فمن طبعها التقلب والتحول لتتحول وتتقلب معها حياة الناس، وشاعرنا واحد من هؤلاء الذين تقلبت بهم الأحوال، وتبدلت الخطوب، إذ ساءت حاله كثيرا يوم كان على موعد مع السجن، فقد سجن في عهد الخليفة الحكم المستنصر، بعدما دبّت الخصومة يوما بينه وبين الخليفة حاكم غرناطة؛ لموقف عارضه فيه شعرا وقد كان معروفا بهجائه السياسي فسجن مع مجموعة من الأدباء وأهل الثقافة في المدينة. فكتب يصف الحال التي وردوا فيها على سجن الزهراء قائلا (الرمادي، ١٩٦٨، ٩٣):

" فوافوا بنا الزهراء في حال خلّة ... تلائم لاستيفائهم في التوثق

وحولي من أهل التأدب مأتم ... ولا جُؤذرٌ إلا بثوب مُشقّق

فلو أن في عيني الحمام كروضها ... وإن كان في ألوانه غير مشفق

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثالث والعشرون
٢٠٢٤م/ ١٤٤٦هـ

ونـــــادى حمـــــامي مهجتـــــي لتغافلـــــت ... فهـــلا أجابـــت وهـــو عنـــدي كبخنقـــي
أعينـــــي إن كانـــــت لـــــدمعك فضـــــلة ... تثبّـــتُ صـــــبري ســـــاعة فتـــــدفقي
فلـــو ســـاعدت قالـــت أمـــن قِلّـــة الأســـى ... تبقّـــت دمـــوعي أم مـــن البحـــر تســـتقي
تكلفنـــــي أن أُعتـــــب الـــــدّهر إنهـــــا ... لجاهلـــة مـــن لـــي بإعتـــابِ مُحنَـــق
وقالـــــت تظـــــنّ الـــــدّهر يجمـــــعُ بيننـــــا ... فقلـــت لهـــا مـــن لـــي يظـــنّ محقّـــق
ولكننـــــي فيمـــــا زجـــــرت بمقلتـــــي ... زجـــرت اجتمـــاع الشـــمل بعـــد التفـــرُّق
فقـــد كانـــت الأشـــفار فـــي مثـــل بُعـــدنا ... فلمـــا التقـــت بـــالطّيف قالـــت ســـنلتقي
أ باكيـــــة يومـــــا ولـــــم يـــــأن وقتُـــــه ... ســـينفد قبـــل اليـــوم دمعـــك فـــارفقي
ومـــذ لـــم ترينـــي أنـــت فـــي ثـــوبِ ضـــائع ... لعمـــري لقـــد جفّـــت بعـــيٍّ مُمـــزّق"

يصف الشاعر في النصف الأول من قصيدته الحال التي ورد عليها السجن مع مجموعة من أصحابه من أهل الأدب وهو بحالة مزرية، إذ يمثل هذا الموقف قمة الألم الذي وصل إليه، وهو يتوسل بعينيه أن تجودا بما عندهما من الدمع ليواسي نفسه الحزينة الكئيبة على هذا المصير الذي قلّ فيه صبره ووصل إلى حد الجزع، إلا أن شاعرنا في النصف الآخر من قصيدته وكعادة كل شعراء الغزل الذين يمرون بمثل هذا الموقف أن يتخيلوا الحبيب ويدعوه إلى مشاركتهم همومهم، فمما يزيد من ألم المصيبة وعظمها هو ذلك الانقطاع بين الأمل الذي يرجوه والشوق الذي يحدوه، فتتدافع الانفعالات في نفسه "ويخترق خياله جدران السجن السميكة، وأبوابه الموصدة، إلى مراتع صباه، إلى الأهل والأحبة، إلى ذلك العالم الغني بالذكريات" (الصمد، ١٩٩٥، ٢١٥)، فبدأ شاعرنا حواره التخيلي مع حبيبته التي تحثه على معاتبة الدهر الذي تأمل أن يجمع بينهم يوما ما، وهنا يبدأ الشاعر بحياكة خيوط أمل ولو كانت واهية إلا أنه يريد التخفيف عن نفسه وآلامه، فيبعث في نفسه أملا ليعيش لذة اللقاء الذي كان يجمعهم فيما مضى من الزمن، فيتخيل تلك الأيام التي كانت تجمعهم، ويأخذ بعد ذلك بنصحها أن تصبر على فراقه، وأن ترفق بنفسها ودموعها حتى تجد يوما دمعا باقيا في مدامعها لتبكيه فيه.

وتستمر مأساة الشاعر مع سجنه، فيقتله الهم والكدر، إذ يمثل دمعه المنهمر والسقم الذي وصل إليه، فيقول (الرمادي، ١٩٦٨، ١٠٣):

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثالث والعشرون
٢٠٢٤م/١٤٤٦هـ

"نسـائلها هـلّا كفـاك نحولـه ونَصْـبتُه أو دمعُـه وهمولـه
تكتّفـه همّـان شـجوٌ وصـبوةٌ فبُلّـغ واشـيه المُنـى وعذولـه
فـأن يسـتبن فـي وجهـه هـمُّ سـجنه فقـد غـاب فـي الأحشـاء عنـك دخيلـه
معنّـىً بكتمـان الحبيـب وحبّـه فـإن يقتـل الكتمـان فهـو قتيلـه
وأقـبلن مـن نحـو الحبيـب كأنمـا تحاشـد نحـوي جفنُـه ونصـوله
دعـوني أشِـمْ بالبـاب بـرق أحبتـي قوامـا فلـم يسـمح بـذاك وكيلـه
لقـد راعنـي سـجنٌ فشـطّ ولـو دنـا مـن السـجن لـم يسـهل علـيّ دخولـه"

ويستمر مع ذلك الطيف الذي لا يفارقه ويبقى حديثه متصلا مع الحبيبة، ليبث لها شكواه وألمه، فهي ترى دموعه ونحوله والهموم التي تراكمت عليه، ويقول إن كان هم السجن باد على محياي فقد أخفيت في الأحشاء حبي لك؛ خوفا عليه من العذول والواشي الذي تلذذ بهذا العذاب الذي يقاسيه، وأنه إن بقي كاتما لهذا الحب فأن الكتمان سوف يقتله، فجمع الشاعر هنا كل الألفاظ الدالة على الحالة النفسية المزرية التي يعيشها الإنسان حينما يمر بمثل هذه الحال، فكل هذا البوح يمثل "بوحا شاكيا يبث الهموم والعذاب الدفين، فغلبت الذات على الإطار واتخذت ألفاظ الغزل العاطفية للتعبير عن آلام الحبس، فاحتملت طاقة إضافية واكتسبت قيمة رمزية في سياقها الجديد" (البرزة، ١٩٨٥، ٦٥٦).

إلا أنه وفي وسط هذا الحزن يبقى يبحث عمّا يساعده ويسانده ولو ببصيص أمل في التغلب على هذا الحبس الذي أقضّ مضجعه، وجعله منهكا متعبا، فيتخيل الرسول الذي جاء من طرف الحبيب متمثلا بالسحاب، فيسارع للنظر من ثقب الباب ليرى ذلك الرسول وما جاء به من أخبار تبث فيه الحياة وتُرجع الروح، مع تأكيده أن وكيلها لا يسمح لها بوصاله، فيتوسل بهم ليشم ريح الحبيب عبر البرق الذي جاءه منها، ألا أنه ومع شدة الشوق الذي لا يبرحه لا يتمنى لها وهي التي يصفها بلذة بالورد الذي يخشى عليه أن يكون في هذا الموضع الذي يحل فيه هو الآن.

ويبقى الشاعر يتسائل مستفهما عن سبب انقطاع الطيف الذي كان يجمعه بالمحبوبة وهو في السجن، فيقول (الرمادي، ١٩٦٨، ١٠٨):

"هبـوا أن سـجني مـانع مـن وصـاله فمـا الخطـب أيضـا فـي امتنـاع خيالـه؟

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثالث والعشرون
٢٠٢٤م/ ١٤٤٦هـ

نعـــم، لـــم تـــنم عينـــي فيطـــرُقَ طيفُـــه ... زوال منـــــامي علـــــةٌ لزوالـــــه
فـــدا الصـــب مـــن لـــم ينسَـــهُ فـــي بلائـــه ... وينســـى اسـمه مـن كـان فـي مثـل حالـه
ومـــن صـــار ســـجني قطعـــةٌ مـــن صـــدوده ... وطـــول اكتئـــابي شُـــعبةً مـــن ملالـــه
ومـــن لـــم يَشُـــبْ شـــهدا بســـمٍّ لطـــاعم ... إلـــى أن بـــدا لـــي هجـــره فـــي دلالـــه
ولـــم تـــرَ عينـــي حاســـدين تباينـــا ... عليـــه ســـوى قلبـــي وتُـــرْبِ نعالـــه
وإنـــــي لأطويـــــه حـــــذارا وإنمـــــا ... يُخـــاف اغتيـــال الجـــرح عنـــد اندمالـــه
ومـــا حُســـنُ هـــذا الشـــعر إلا لنفثـــةٍ ... لـــه فـــي فمـــي مـــن قبـــل قطـــع وصـــاله"

فيرد الشاعر هنا على تساؤله في عدم زيارة المحبوبة له فيقول: إن كان سجنه قد منعه من رؤيتها ووصالها، فما الذي يمنعها من زيارته في الطيف؟ إلا أنه يتدارك ذلك فيقول: إنه المقصر ويلوم نفسه؛ لأنه لم يذق النوم ليأتيه طيف الحبيب فبرهن على عدم ورود الطيف بعدم نومه وهذا دليل أرقه وشدّة شوقه حتى جفاه النوم، فهذا الحبيب الصّب وهو في قمة بلائه لم ينس ذكر واسم الحبيب وإن نسى الآخرون الذين يمرون بمثل حاله.

إن صدود الحبيب هو سبب كل هذا الاكتئاب الذي يمر به الشاعر، وأنه أي الحبيب قد يخلط الهجر والدلال كمن يخلط السم بالعسل، إلا أنه من شدّة الشوق واللهفة عليه فإن قلبه وترب النعال للحبيب هما من يحسدانه.

تتجلى ثنائية اللّذة الألم لدى الشاعر في قصيدة أخرى إذ تتضاد الألفاظ الواردة فيها بصورة وكأن الشاعر قد سعى لها سعيا، فتكثر فيها ألفاظ الظواهر الكونية كالسحاب والرياح والبروق والطيور، إذ تكون تعبيرا عن العاطفة حينما يمر الشاعر بهذه المواقف، وهذا مما يؤكد عمق الألم، فيقول (الرمادي، ١٩٦٨، ٨٨ ـ ٨٩):

"علـــى كبـــدي تهمـــي السّـــحاب وتـــذرف ... ومـــن جزعـــي تبكـــي الحمـــام وتهتـــف
كـــأن السّـــحاب الواكفـــات غواســـلي ... وتلـــك علـــى فقـــدي نـــوائح هُتّـــف
ألا ظعنـــت ليلـــى وبـــان قطينهـــا ... ولكننـــي بـــاق فلومـــوا وعنّفـــوا
وآنســـت فـــي وجـــه الصّـــباح لبينهـــا ... نحـــولا كـــأن الصّـــبح مثلـــي مُـــدنَف
وأقـــرب عهـــدٍ رشـــفةٌ بلّـــت الحشـــا ... فعـــاد شـــتاءٌ بـــارد وهـــو صـــيّف

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثالث والعشرون
٢٠٢٤م /١٤٤٦هـ

وكانـــت علـــى خـــوف فولّـــت كأنهـــا ... مـن الـرّدف فـي قيـد الخلاخـل ترسـف
وأهـــدت ســـلاما عـــن بنـــان كأنهـــا ال ... تماعـــا و وحيـــا بـــارق متخطـــف
بمعصـــم كـــافورٍ بياضـــا، تكنّـــه ... بغاليـــةٍ مـــن صـــبغه و تطـــرّف
وكـــم ليلـــة قـــد جمعتنـــا وأدبـــرت ... تنـــوح علـــى تفريقنـــا وتلهّـــف
وليلـــة أنـــس قـــد غمرنـــا ظلامهـــا ... بأوجـــه راح تســـتنير فتُرشَـــف
إلـــى أن بـــدا وجـــه الصّـــباح كأنمـــا ... تحمّـــل لقمـــان وأقبـــل يوســـف"

ولأن حياة السجن قد تفرض نمطا واحدا من القهر والألم، إلا أن الشاعر يحاول جاهدا أن يُبقي الباب مفتوحا لآماله في أن يتنفس شيئا ولو يسيرا من الأمل والتفاؤل وأن يصنع لنفسه جوا مختلفا من الحياة الحقيقية التي يعيشها، كما فعل أبو عمر الرّمادي في قصيدته هذه، فبعد ما كان يقاسيه من الألم والتفكير حتى بالموت ونهاية الحياة فإنه أوجد لنفسه فسحة من الراحة النفسية لكي يخفف من وطأة هذا القيد المفروض عليه، فلجأ إلى الوصف والتغني بصفات الحبيب وجماله، والتذكير بالأيام والليالي الجميلة التي مرت وهو بقربه.

وحتى بعدما أُطلق سراحه من السجن يعود الشاعر إلى الحديث عن ألم الحبيب وهجره وبحثه عن اللذة التي تسكّن روحه وتخفف روعه ويكمن ذلك في تذكرها والبحث عن وصالها، فيعود ليقف على أطلال من يحب (خلوة)، فيقول (الرمادي، ١٩٦٨، ١١٠):

" قفـــوا تشـــهدوا بثّـــي وإنكـــار لائمـــي ... علـــى بكـــائي فـــي الرســـوم الطواســـم
أ يـــأمُن أن يعـــدو حريـــق تنفســـي ... وإلا غريقـــا فـــي الـــدموع الســـواجم
خـــذوا رأيـــه إن كـــان يتبـــع كـــل مـــن ... ينـــوح علـــى ألافـــه بـــالملاوم
فهـــذا حمـــام الأيـــكِ يبكـــي هديلـــه ... بكـــائي فليفـــزع للـــوم الحمـــائم
ومـــا هـــي إلا فرقـــةٌ تبعـــث الأســـى ... إذا نزلـــت بالنـــاس أو البهـــائم
خـــلا نـــاظري مـــن نومـــه بعـــد خلـــوة ... متـــى كـــان منـــي النّـــومُ ضـــربةَ لازم"

فيُشهّد الشاعر رفاقه ومن معه على البكاء والدموع التي يذرفها على هذه الرسوم التي كانت تحتضن الحبيبة يوما، وأنه قد وصل به الحد إلى إحساسه بالنار تخرج زفيرا من أحشائه، فهو وعلى الرغم من كل هذا الذي يمر به لكنه بتذكره هذا يبحث عن اللذة التي فقدها برحيل هذا الحبيب

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثالث والعشرون
٢٠٢٤م/١٤٤٦هـ

لتصبح حياته من بعده بكاء وحزنا لا ينتهي، وينكر عليه إنكاره لهذه الدموع التي كانت سنّة الحمام وقت هديله، ليخبره أن حياته قد بدت مظلمة وفقد بعدها حتى النوم، إذ أرّقه هذا الفقد والبعد.

إذا كانت التجربة عند أبو عمر الرّمادي محاولة نابعة من وجدانه وعقله للهروب من قيود الواقع التي فُرضت عليه، والوصول بها لمدارات الكمال، وكشف المجهول، وبيان علاقته بالكون، فقد كتب لتجربته الحياتية والفنية أن تحمل روحا تفاعلية شعرية تقوم على التساؤل والاكتشاف للبحث عن جوهر الأشياء، وكل هذه المؤثرات قامت بإعطاء لغة الرّمادي أبعادا جديدة، ومعان أعمق، فالحركة الثقافية عنده كانت تحمل نوعا من التساؤل الحيوي الجديد في الفكر الثقافي، وهي يمكن أن تكون تجربة إبداعية تجسدت في الثنائيات الضدية التي وسعت من حدود الشعر عنده.

ومن خلال ما تقدم فإن اللّذة والألم "حالتان مرتبطتان ولا سبيل إلى الفصل بينهما على الإطلاق، مثلهما كمثل كفتي الميزان كل حركة في إحدى الكفتين من شأنها أن تتبع بالضرورة تحرك الكفة الأخرى" (إبراهيم، ١٩٧١، ٩٨). وإن الشاعر يوسف بن هارون قد ترك إرثاً أدبياً غنياً يشد القلوب ويستحضر الأحاسيس بكل عمق، مؤكداً على أن الشعر ليس مجرد كلمات، بل هو مرآة لروح الإنسان وتجاربه الداخلية.

الخاتمة:

يمكننا القول إن الشاعر أبو عمر الرّمادي كشاعر من شعراء الأندلس استطاع ببراعته أن يرسم صورة متناقضة وعميقة لثانية اللّذة والألم في شعره، عبرت عن تجربة الحب والهجر، والحنين والوجدان بطريقة تجمع بين المشاعر المتناقضة بأسلوب شعري مائز، إذ حوت قصائده على فسحة من التأمل العميق في الحياة والعواطف، مما يمنح القارئ تجربة شعورية غنية ومتعددة الأبعاد في الشعر الأندلسي. وقد ظهرت بعض النتائج المترتبة على ذلك منها:

- جسدت قصائد يوسف بن هارون ثنائية اللّذة والألم تجسيدا رائعا، حيث استطاعت خلق صور شعرية تتغنى بجمال اللحظات الجميلة في الحب والوجدان، بينما كانت تنبض بمرارة الفراق والحنين.
- كان الرّمادي يتقن استعمال لغة فائقة الجمال تنسجم مه تعقيدات المشاعر الإنسانية، مما جعل قصائده ملتقطة لروح العصر الأندلسي.
- انعكست في كلماته وصوره الشاعرية وعمق المشاعر وتعقيداتها، إذ يندمج الألم واللذة في حبكات شعرية تنقل براعة الشاعر في إظهار الجمال والمأساة على حد سواء.

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثالث والعشرون
٢٠٢٤م/١٤٤٦هـ

♦ كما عكست هذه الثنائية في شعر الرّمادي التجربة الإنسانية العميقة التي تجمع بين المشاعر المتضادة في آن واحد، فقد استطاع الشاعر بما يملكه من قدرة على تصوير هذه المشاعر ببراعة، إذ صورت تقلبات الروح والقلب، مؤكدة على أن الحياة لا تخلو من الألم حتى في أشد لحظات الفرح واللذة، وأن الألم قد يكون باعثا وملهما في الوقت نفسه.

♦ استطاع الشاعر بشعره الغزلي الممزوج بالألم واللذة أن ينقلنا إلى عالم من العواطف المتناقضة، إذ يصوغ كلماته بأسلوب يجمع بين شوق الحبيبة وألم فراقها.

♦ لقد كان للسجن بعد أضافي لمعاناته وتجاربه الرومانسية، فقد ظهرت شخصيته بشكل عميق وعبّر في قصائده عن حبّه المحترق واشتياقه الجارف لمحبوبته.

♦ لقد أثبت الشاعر أن الحب يمكن أن ينبت في أماكن غير متوقعة ويمكن له أيضا أن يُزهر في أصعب الظروف، وتجسد ذلك في تصويره لتلك اللحظات الجميلة من العشق والشوف بوساطة المزج بين الحنين العميق والأمل المتجدد.

وهكذا ظلت قصائد يوسف بن هارون تحفة أدبية تنطق بصدق الإحساس وعمق الروح والتجربة الشعورية، تذكرنا دوما بقدرة الشعر على تجسيد الألم والأمل في آن واحد، مما يعطيها القدرة على أن تكون محطة أبدية للتأمل والاستمتاع الأدبي.

المصادر والمراجع:

١. إبراهيم، ريكان، (١٩٨٩)، نقد الشعر في المنظور النفسي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.

٢. إبراهيم، زكريا، (١٩٧١)، مشكلة الإنسان ـ مشكلات فلسفية، دار مصر للطباعة والنشر، القاهرة.

٣. ابن الخطيب، لسان الدين، (١٩٥٦)، إعمال الإعلام، تح: لافي بروفنسال،ط٢، دار المكشوف.

٤. ابن بشكوال، أبو القاسم، (١٩٩٤)، كتاب الصلة في ذكر أئمة الأندلس، ط٢، عني بنشره السيد عزت الحسيني، مكتبة الخانجي.

٥. ابن خاقان، أبو الفتح، (١٩٨٣)، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، ط١، تح: محمد علي شوابكة، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٦. الأندلسي، ابن حزم، (١٩٨٧)، رسائل ابن حزم الأندلسي، ج١، ط٢، تح: د. إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

٧. الأندلسي، ابن سعيد، (١٩٧٨)، المغرب في حلى المغرب، ج١، ط٣، تح: شوقي ضيف، دار المعارف، مصر.

٨. بالنثيا، آنخل، (١٩٧٩)، تاريخ الفكر الأندلسي، تر: حسين مؤنس، ط١، مكتبة النهضة المصرية.

٩. البرزة، أحمد مختار، (١٩٨٥)، الأسر والسجن في شعر العرب، ط١، مؤسسة علوم القرآن، دمشق.

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثالث والعشرون
٢٠٢٤م/ ١٤٤٦هـ

١٠. التكريتي، ناجي، (١٩٧٩)، الفلسفة الأخلاقية الإفلاطونية عند مفكري الإسلام، ط١، دار الأندلس للطباعة والنشر.

١١. الجاحظ، أبو عمر عثمان بن بحر، (١٤٢٤هـ)، كتاب الحيوان، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٢. جرّار، ماهر زهير، (١٩٦٨)، شعر الرّمادي يوسف بن هارون، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

١٣. حسن، عزة، (١٩٦٨)، شعر الوقوف على الأطلال من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث، دراسة تحليلية، مطبعة الشرق، دمشق.

١٤. الحميدي، محمد بن فتوح، (١٩٨٣)، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

١٥. الديوب، سمر، (٢٠١٧)، الثنائيات الضدية، بحث في المصطلح ودلالته، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، العتبة العباسية المقدسة.

١٦. الديوب، سمر، (٢٠٠٩)، الثنائيات الضدية، دراسة في الشعر العربي القديم، منشورات الهيئة العامة للكتاب، وزارة الثقافة ـ دمشق.

١٧. الشنتريني، ابن بسام، (١٩٧٩)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج٥، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.

١٨. صليبا، جميل، (١٩٨٢)، المعجم الفلسفي، ج١، دار الكتب اللبناني ـ بيروت.

١٩. الصمد، واضح، (١٩٥٥)، السجون وأثرها في الآداب العربية (من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي)، واضح الصمد، ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

٢٠. العبادي، عبدالحميد، (١٩٥٨)، المجمل في تاريخ الأندلس، ط١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

٢١. عباس، إحسان، (١٩٨٥)، تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، دار الثقافة، بيروت.

٢٢. عبدالعزيز، سعد، (١٩٧٢)، الزمن التراجيدي في الرواية المعاصرة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

٢٣. عطية، ليلى نعيم، (٢٠٠٥)، ثنائية اللذة والألم في الشعر العربي قبل الإسلام، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بغداد.

٢٤. عنان، محمد عبدالله، (١٩٩٧)، دولة الإسلام في الأندلس، ج١، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة.

٢٥. مسعود، علي زيتونة، الثنائيات الضدية في لغة النص الأدبي بين التوظيف الفني والذوق الجمالي، جامعة الوادي.

٢٦. المظفري، بخشان رحيم رشيد، (٢٠٠٦)، الحزن بين البواعث والآثار في شعر ما قبل الإسلام، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، كلية الآداب.

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثالث والعشرون
٢٠٢٤م/١٤٤٦هـ

٢٧.مظهر، إسماعيل، (١٩٣٦)، فلسفة اللذة والألم، أرسبطس، وشيعته، مطبوعات مكتبة النهضة المصرية.

٢٨.المقالح، عبد العزيز، (١٩٨١)، الشعر بين الرؤية والتشكيل، ط١، دار العودة، بيروت.

٢٩.المقري، أحمد بن محمد، (١٩٦٨)، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، مج٤، تح: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

Sources and References:

30. Ibrahim, Rikan, (1989), Criticism of Poetry from a Psychological Perspective, House of General Cultural Affairs, Baghdad.
31. Ibrahim, Zakaria, (1971), The Problem of Man - Philosophical Problems, Dar Misr for Printing and Publishing, Cairo.
32. Ibn al-Khatib, Lisan al-Din, (1956), I'mal al-I'lam, ed.: La Vie
33. Ibn Bashkwal, Abu al-Qasim, (1994),The Book of Connection in Mentioning the Imams of Andalusia, 2nd edition, published by Sayyid Izzat al-Husseini, Al-Khanji Library.
34. Ibn Khaqan, Abu Al-Fath, (1983), The Aspiration of Souls and the Theater of Tans in the Salt of the People of Andalusia, 1st edition, edited by: Muhammad Ali Shawabkeh, Al-Resala Foundation, Beirut.
35. Al-Andalusi, Ibn Hazm, (1987), The Letters of Ibn Hazm Al-Andalusi, vol. 1, 2nd edition, ed.: Dr. Ihsan Abbas, Arab Foundation for Studies and Publishing, Beirut.
36. Al-Andalusi, Ibn Saeed, (1978), Al-Maghrib fi Hali Al-Maghrib, vol. 1, 3rd edition, ed.: Shawqi Deif, Dar Al-Maaref, Egypt.
37. Palencia, Angel, (1979), The History of Andalusian Thought, Trans.: Hussein Mu'nis, 1st edition, Egyptian Nahda Library.
38. Al-Barza, Ahmed Mukhtar, (1985), Captivity and Imprisonment in Arab Poetry, 1st edition, Qur'anic Sciences Foundation, Damascus.
39. Al-Takriti, Naji, (1979), Platonic Moral Philosophy among Islamic Thinkers, 1st edition, Dar Al-Andalus for Printing and Publishing.
40. Al-Jahiz, Abu Omar Othman bin Bahr, (1424 AH), Book of Animals, 2nd edition, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, Beirut.
41. Jarrar, Maher Zuhair, (1968), The Poetry of Al-Ramadi Yusuf Bin Haroun, Arab Foundation for Studies and Publishing, Beirut.
42. Hassan, Azza, (1968), Poetry of Standing on the Ruins from Pre-Islamic times to the end of the third century, an analytical study, Al-Sharq Press, Damascus.
43. Al-Hamidi, Muhammad bin Fattouh, (1983), The Ember of the Quoted in Mention of the Governors of Andalusia, ed.: Ibrahim Al-Abyari, Dar Al-Kitab Al-Lubani, Beirut.
44. Al-Dayoub, Samar, (2017), Opposites, Research on the Term and its Meaning, Islamic Center for Strategic Studies, Al-Abbas Holy Shrine.

45. Al-Dayoub, Samar, (2009), Opposites, a Study in Ancient Arabic Poetry, Publications of the General Book Authority, Ministry of Culture - Damascus.
46. Al-Shantarini, Ibn Bassam, (1979), Al-Khakhbra fi The Virtues of the People of the Peninsula, vol. 5, ed.: Ihsan Abbas, House of Culture, Beirut.
47. Saliba, Jamil, (1982), The Philosophical Dictionary, Part 1, Dar Al-Kutub Al-Lubani - Beirut.
48. Al-Samad, Wadh, (1955), Prisons and their Impact on Arabic Literature (from the pre-Islamic era until the end of the Umayyad era), Wadh Al-Samad, 1st edition, University Foundation for Studies, Publishing and Distribution, Beirut, Lebanon.
49. Al-Abadi, Abdul Hamid, (1958), Al-Majmal fi Tarikh Al-Andalus, 1st edition, Egyptian Nahda Library, Cairo.
50. Abbas, Ihsan, (1985), The History of Andalusian Literature in the Era of the Supremacy of Cordoba, House of Culture, Beirut.
51. Abdel Aziz, Saad, (1972), Tragic Time in the Contemporary Novel, Anglo-Egyptian Library, Cairo.
52. Attiya, Laila Naeem, (2005), The duality of pleasure and pain in pre-Islamic Arabic poetry, doctoral thesis, College of Arts, University of Baghdad.
53. Anan, Muhammad Abdullah, (1997), The State of Islam in Andalusia, vol. 1, 1st edition, Al-Khanji Library, Cairo.
54. Masoud, Ali Zaitouneh, Opposites in the Language of Literary Texts between Artistic Employment and Aesthetic Taste, University of the Valley.
55. Al-Muzaffari, Bakhshan Rahim Rashid, (2006), Sadness between motives and effects in pre-Islamic poetry, Master's thesis, University of Baghdad, College of Arts.
56. Mazhar, Ismail, (1936), The Philosophy of Pleasure and Pain, Aristotle and His Shiites, Egyptian Renaissance Library Publications.
57. Al-Maqaleh, Abdel Aziz, (1981), Poetry between Vision and Formation, 1st edition, Dar Al-Awda, Beirut.
58. Al-Muqri, Ahmed bin Muhammad, (1968), Nafah al-Tayyib fi Ghusn al